﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النّمل: 82]

إخـــلالُ الـلـهِ تَـعـالى عَـذابَـهُ بِـالمُسْتَـهْـزِئِـينَ بِدينِهِ ووَعيدِهِ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكَر اللّهُ تَعالى مِن عظيمِ زَجْرِهم ما فيهِ تسليَةٌ للنَّبيِّ ﷺ وربْطٌ على قلبه؛ أعقبَهُ ببيانِ ما توعَّدَهُم اللّه تعالى به ممّا استعجلوهُ على سبيلِ الاستهزاءِ بهِ والاستبعادِ لَهُ، وبدأ بذِكْرِ الدّابَّةِ التي تميِّز المسلمَ مِن غيره[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٗ﴾: (دبّ) تدلُّ تصريفاتُهما على حركةٍ على الأرض أخفَّ من المشْي، تقول: دَبَّ دبيبًا، أي: مشى مَشْيًا خفيفًا، وكلُّ ما مَشى على الأرض؛ فهو دابَّة[2]، وفي السّياق القرآنيِّ، قد يُرادُ بالدّابَّةِ كلُّ ما دبَّ على الأرض، ويندرجُ في ذلك: الإنسان، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِمۡ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: 61]، وقد يُرادُ كلُّ ما دبَّ على الأرض من غير الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، فالدّابة هنا غير الإنسان، بقرينة: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38][3]، وغلب إطلاقُهُ على الحيوانِ وعلى الحَشرات خاصَّةً؛ ممّا لا تُدْرِك الحاسَّةُ حركتَه[4].

والمقصود بـ ﴿دَآبَّةٗ﴾ في قول اللّه سبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ دابَّةٌ تخرج في آخر الزّمان[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 216.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (دب).
(3) سامي القدّوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 99.
(4) محمّد عبدالخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 6/ 343.
(5) مجموعة من المؤلّفين، موسوعة محاسن الإسلام وردّ شبهات اللّئام: 6/ 247.

2) ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: (يقن) تدلُّ تصريفاتها على زوال الشَّكِّ[1]، فهو أعلى من الظَّنِّ، قال الله ﷻ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: 32]، وحدُّ اليقين: سكون الفهم مع ثباتِ الحكم[2]، أي: إنَّ اليقينَ خلاف الشَّكِّ والتَّردُّد، وهو الاطمئنان والتَّحقُّق[3] خلاف الرّيبة[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِـنْ عَـلامـاتِ السّاعةِ الكُبْرى خُروجُ الدّابَّةِ

وإذا حقَّ عليهِم العذابُ بِسَبَبِ تماديهِم في العِصْيانِ والطُّغيان، وإعراضِهِم عَن شَرْعِ اللهِ سُبْحانه وحُكْمِه، حتّى صاروا مِن شِرارِ خَلْقِه؛ أَخْرَجْنا لَهُم مِنَ الأرضِ في آخِرِ الزَّمانِ علامةً مِن علاماتِ السّاعة الكُبْرى، وهيَ الدّابَّة، وكان مِن شَأْنِها أنَّها تُحَدِّثُهم أنَّ النّاس المُكَذِّبين بالبَعْثِ والجزاءِ كانوا لا يُصَدِّقون القُرآنَ والنَّبيَّ ﷺ والدّينَ الذي جاءَ به مِن عند اللهِ تعالى[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

بَـيـانُ مـا أُعِـدَّ لِلمُعانِدينَ مِنَ العَذابِ

وُصِلَت الآية في قول الله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ بما قبلها بواو العطف من باب عطف القصَّة على القصَّة، فإنَّ اللهَ تعالى لمّا ذكر أنَّ موقف المعانِدينَ من الدَّعوة والنَّبيِّ ﷺ ومن الإنذارِ بالعذاب كان كموقف الأموات والصُّمِّ والعُمْي؛ انتقل إلى التَّذكير بالقيامة، وما أُعِدّ لهم فيها منَ الوعيد[6]، وقد عجَّلوا بإنزاله استهزاءً وتعجيزًا[7].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (يقن).
(2) الراغب، المفردات: (يقن).
(3) الخليل، العين: (يقن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 136.
(5) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 215.

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ (إذا):

تَحَقُّقُ حُلولِ العَذابِ عَلى المُعادينَ لِلدّينِ الحَقِّ

عُلِّقَ الشَّرْطُ بِـ (إذا) دون (إن)، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ وذلك لأنَّ (إذا) تدلُّ على القَطْعِ بِوُقوعِ مَدْخولِها، بخلافِ (إنْ)؛ فإنَّها تدلُّ على الشَّكِّ في وُقوعه، فأفادَ دُخول (إذا) الجزمَ بحُلول العذابِ عليهم[1]؛ وذلك لاسْتِحْقاقِهِم إيّاه بسبَبِ إعْراضِهِم عن القرآنِ ومُعاداتهم نَبيَّ الإسلام ﷺ، وهذا القَطْعُ والجَزم أبلغُ في الزَّجر وأدخلُ في الوعيدِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَقَعَ﴾:

تَهْديدُ المُعْرِضينَ بِدُنُوِّ حُلولِ العَذابِ عَلَيْهِمْ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالفعل الماضي ﴿وَقَعَ﴾، من قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، ودلَّ ذلك على تقريب حُصوله وتحقُّقه، ودنوِّ وقوعِه واقترابه[2]، أي: إنَّه قد أَشْرَف وقوعُه؛ إذْ إنَّ مجيءَ الفعلِ الماضي مع (إذا) يُحوِّل المُضيَّ إلى الاستقبال[3]، ويُشْعِرُ بدنوِّ وقوعِ الأمر عليهم، على وجْهِ التَّهديد والتَّهويل.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿وَقَعَ﴾:

تَحَقُّقُ وُقوعِ أَشْراطِ السّاعَةِ وكُلِّ ما أَخْبَرَ اللهُ تَعالى بِهِ

جاء التَّعبير في الآية الكريمة بالوقوع، في قول الله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، وفي ذلك استعارة تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، حيث شُبِّهَ حلولُ وقت الأمر بوقوعه؛ للدِّلالة على تأكُّد حصوله وتحقُّقه، وذلك أبلغُ في التَّهويلِ؛ لأنَّ المقدِّماتِ والأماراتِ، إذا كانت بهذه المنزلةِ؛ فكيف بالشَّيءِ نفسِهِ إذا حلَّ.

وفي الآية إشارة إلى شيءٍ من أشراط حلول السّاعةِ، وهو خروج الدّابَّةِ، وذلك من خوارق العاداتِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 216.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.

دِلالَةُ (أل) في لَفْظِ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾:

جاءَ لفظ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ معرَّفًا باللّام في قول اللّه تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، واللّام فيها دالَّةٌ على العَهْدِ، وهو عهدٌ يُفَسِّره المقامُ، ويُبَيِّنه، والمراد به: الوعيد الَّذي توعَّدهم به النَّبيُّ ﷺ، واستعجله الكفّارُ استهزاءً بهِ وتكذيبًا، فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ [النّمل: 71][1].

بَيانُ هَوْلِ ما كانوا يَستَعجِلونَ وُقوعَهُ

وتدلُّ اللّام أيضًا على الكَمال، فهو القول الكامِلُ، حتّى إنَّه لِعِظَمِه وكمالِه لا قولَ غيرُه[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الوَعيدِ بِالقَوْلِ:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ عن الوعيدِ الذي يُتَوعَّدون بِهِ، في قول اللّه سبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، وهو على حذف مضافٍ، والتَّقدير: (وقع عليه مضمونُ القول، فيكون إيجازًا بالحذف).

عُمومُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في إخلالِ العَذابِ عَلى المُعانِدينَ

ويجوز أن يكون من بابِ إطلاق القولِ على المَقول؛ لكونِه سببَهُ[3]، فيكون من باب المجاز المرسل، وعلاقتُه السَّببيَّة، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ هذا الأمرَ العظيم الذي يقع، يحلُّ بهم بقولِ اللّه تعالى له: كُنْ، فيكون، فإحلالُهُ بهم أمرٌ هيِّنٌ على اللّهِ سُبْحانَهُ.

بَلاغَةُ الاكْتِفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾:

إذا حُمِلَ القول في قول اللّه تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على ما وُعدوا بهِ مِن أَشْراط السّاعة، ومِن ذلك خُروجُ الدّابَّة؛ فيكون في الآية اكتفاءٌ، وذلك لأنَّ أشراطَ السّاعة تعمُّ النّاس جميعًا، وفيهم المؤمنُ والكافر، فيكون القولُ واقعًا لَهُم وعَلَيْهِم، ولكن اكتُفيَ بـ ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ مراعاةً لمقام التَّخويف والإنذار[4].

أَشْراطُ السّاعَةِ تَعُمُّ النّاسَ كُلَّهُمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 216.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 268.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 262.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالماضي ﴿أَخْرَجْنَا﴾ وإسْنادِهِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

أهـوال السّاعة أمرٌ عَظيمٌ

جاء التَّعبير عن الإخراجِ بالفعل الماضي ﴿أَخْرَجْنَا﴾، في قول الله سبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا الإخراج، وهذا أليقُ بمقامِ التَّهديد وأنسَبُ، وأنَّ ما ذُكِرَ منهُ واقِعٌ لا محالةَ.

وزيدَ في تأكيدِ هذا الوعيد وتهويلِهِ بإسنادِ فعل الإخراج إلى ضميرِ العظمة الرّاجع إلى الله سبحانه[1]، فهو إخراج عظيمٌ مِنَ الله العظيم، وإذا كان كذلك؛ فلا بُدَّ أن يكون المُخرَجُ المتوعَّدُ به عظيمًا أيضًا.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿دَآبَّةً﴾:

بَـيـانُ خُـروجِ أَوْصـافِ الـدّابَّةِ عَنِ المألوفِ

نُكِّر لفظ ﴿دَآبَّةً﴾ مِن قول الله سُبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ لإرادة التَّهويل والتَّعظيم، فهي دابَّةٌ وأيُّ دابَّةٍ؟[2].

وفي التَّعبير عنها باسم الجِنْسِ من الدَّلالة على غَرابة شأنِها وخروجِ صِفاتها عن حدِّ البيانِ ما لا يخفى[3].

دِلالَةُ التَّقْييدِ بِالجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

إخْراجُ الدّابَّةِ مِنَ الأَرْضِ فيهِ إيماءٌ إلى بَعْثِ النّاسِ يَوْمَ القيامَةِ

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قولِ الله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ متعلِّقانِ بفعل الإخراج، وليسا متعلِّقَين بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿دَآبَّةً﴾ على أنَّ المعنى: أخرجنا لهم دابَّةً كائنةً من الأرض[4]، وفي هذا التَّقييد بالجارِّ والمجرور إيماءٌ إلى أنَّ إخراجها إخراجٌ خاصٌّ خارق، فالدّابة ليست ممّا ينزل من السَّماء أو بتحوُّل من خَلْقٍ إلى آخَرَ، وإنَّما يُخْرِجُها اللهُ سُبحانَهُ بقدرته مِنَ الأرض.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 216.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 216.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 301.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 234.

وفي إخراج الدابَّة من الأرض إيماءٌ إلى ما يكون في السّاعة التي أُخْرجت هذه الدّابَّة بين يَدَيْها من تشقُّق الأرض وخروج النّاس مِن جَوْفِها أحياءً كاملةً خِلْقَتُهم[1].

دِلالَةُ وصْفِ الدّابَّةِ بِـ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾:

مُبايَنَةُ الدّابَّةِ لِلحَيَواناتِ العُجْمِ

وُصفتِ الدّابَّة بالتَّكليم في قول الله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ لإرادة الاحتراسِ، وذلك لأنَّ لفظ الدّابَّة قد يُشْعِرُ بأنَّها كالحيوانات العُجْمِ التي لا كلام لها، فبيَّن وصفُها بـ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ إلى أنَّها دابَّة خاصَّة تكلِّم النّاس بكلامٍ يَفْهَمونه[2]، وهذا أدخلُ في التَّهويل والتَّعظيم.

وأفاد وصفُها بالتَّكليم معنى التَّحقير أيضًا، ولا تنافي بينَ هذا والذي قبله؛ لأنَّ التَّعظيم راجعٌ إلى ذاتِ الدّابَّة، وأمّا التَّحقير؛ فهو باعتبار المُعْرِضينَ، وذلك لأنَّهم لم يكونوا يُصغون للآيات التَّنزيليَّة؛ فكان مِن المناسب أن يُخاطِبَهُم حيوانٌ بهيم، وليكون لهم ذلك تَنْديمًا لإعراضِهم عَن قبولِ أبلَغِ كَلامٍ، وأَوْقَعِه مِن أشرفِ إنسانٍ وأَفْصَحِه[3].

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾:

التَّهْديدُ المُوَجَّهُ لِلكُفّارِ هوَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وعِنادِهِمْ

الضَّمير في ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ مِن قول الله سُبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ راجعٌ إلى الكفرة المُنْكِرين للبَعْثِ مُطْلَقًا لا خصوص الكفرَةِ المتحدَّث عنهم في الآياتِ، وذلك لأنَّهم عند خروجِ الدّابَّة يكونونَ في عِداد المَوْتى[4]، وفي تهديد الكفرة الذين يكونون في آخر الزَّمان تهديد للمَوْجودين عندَ نزول الخِطاب؛ لأنَّ التَّهديدَ كان بسبَب الكُفْر لا بسببِ ذَواتِهم، والعِلَّة موجودة في الكُفّار الموجودين وقتَ الخِطاب.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 234، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 216.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 235.

أَثَرُ اخْتِلافِ مَعْنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ في إثْراءِ المَعْنى:

غَرابَةُ شَأْنِ الدّابَّةِ في تَكْليمِها النّاسَ

وُصِفت الدابَّة بوصف التَّكليم، في قول الله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، وأصل هذا اللَّفظ يدلُّ على معنيين: **أحدُهما:** الكلامُ، أي: إنَّ الدّابَّة تتكلَّم معَ النّاس حديثًا يَفْهَمونه، **والآخرُ:** الكَلِمُ، أي: إنَّ الدّابَّة تكْلُمُ النّاسَ، أي: تجرَحهم، والتَّشديد في لفظ (تُكَلِّم) للتَّكثير[1].

وبين الكلام والكَلْم معنًى يجمعهما، وهو التَّأثير[2]، ولا يمتنعُ الجمعُ بين المعنيين، بأن تكون هذه الدّابَّةُ ممّا تُكلِّمُ الناسَ كلامًا يفهمونَهُ، وتَجْرَحُهُم، بمعنى: تَسِمُهُم، فتَسِمُ المُؤْمِنَ بعلامةٍ، وتجلو وجهه حتّى يُنير، وتَسِمُ الكافر بخَطْم أنفِهِ[3].

وهذا وإنْ كان مقبولًا مِن جِهَةِ المَعْنى، وتدلُّ عليه الآثارُ، إلّا أَنَّ اللَّفظ القرآنيَّ يَنْبَغي حملُهُ على المَشْهورِ الشّائع مِن كلام العرب، وهو أن يكونَ لفظُ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ منَ الكلام بمعنى الحديثِ لا بمعنى الكَلْم، وهو الجرحُ؛ ولذا استبعدَ هذا المعنى أبو السُّعود[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾:

تَصْويرُ حالِ تَكْليمِ الدّابَّةِ النّاسَ

جاء التَّعبير عن التَّكليم في الآية بالفعلِ المضارع ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، فقال سبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، وهو دالٌّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، وذلك مُشْعِرٌ بكثرة تَكْليمِها الناسَ، كما أنَّ في الفعل المضارع تصويرًا لحالِ التَّكليم، كأنَّه حاصلٌ وقتَ الخطابِ، وذلك أَدْعى لاسْتِحْضاره في الذِّهْنِ وتَعَقُّله أتَمَّ التَّعقُّل.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 269.
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 56، وعبد الله الغفيلي، أشراط الساعة، ص: 156.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 302.

دِلالَةُ الجُمْلَةِ الخَبَريَّةِ في الآيَةِ:

تَثْبيتُ المُؤْمِنينَ ورَدْعُ الكافِرينَ

الجملةُ في قول الله سبحانه: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ خبريَّة؛ لأنَّ التَّحقيق في جُمْلة الشَّرط أنَّهُ يُنظر إليها باعْتِبار جوابِها، فإنْ كانَ خبرًا - كما في هذه الآيةِ - كانت جملةُ الشَّرط خبريَّةً، وهذا الإخبارُ يُراد به إعلامُ المُخاطَبين بما تضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ - على ما هو الأصل في الإخبارِ - وتنضمُّ إلى ذلكَ دِلالَتُهُ على التَّنفير عمّا كانوا عليهِ مِنَ الإنْكار؛ ليَثْبُتَ بذلكَ أهلُ الإيمان، ويَرْتَدِعَ أهلُ الكفران[1]، فيكون الخَبَرُ مُسْتَعْمَلًا في حقيقتهِ ومَجازِه، وذلك جائِزٌ في قولِ جَماعَةٍ مِن أهل العلم.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾:

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ بَـيْنَ الـقِـراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ وخلف العاشر ومعهم يعقوب: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّ﴾، وذلك بتقدير باء محذوفةٍ، هي باء السَّببيَّة[2]، وهذا مفيدٌ التَّعليلَ، أي: إنَّ الدابة تُكلِّم النّاس؛ بسبب أنَّ النّاس كانوا لا يؤمنون بالآيات، ويجوز أن تكون الباء المقدَّرة باء التعدية، فتكون جملة ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ من مقولِ الدابَّة.

وقرأ بقيَّة العشرة: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالكسر، على تقدير قول محذوفٍ، أي: تكلِّم النّاس قائلةً: إنَّ النّاس لا يُؤمنون[3]، أو على إجراء الكلام مجرى القول؛ لأنَّهُ بمعناهُ[4].

وقراءة الكسرِ تَحتمل أيضًا أن تكونَ الجملةُ مُسْتَأنفَةً، ولا يكون من كلام الدّابَّة، بل من كلام الله تعالى[5]، وهذا أظهرُ لقوله:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 235.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 338، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.
(3) مكّي بن أبي طالب، الكشف، ص: 771.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 301.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 8/ 643.

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، إلّا إذا حُمِلَ على حذف مضافٍ، والتّقدير: (بآياتِ ربِّنا)، وهو خلافُ الظّاهِرِ.

فكان اختلافُ القراءتين جامعًا لمَعْنَيَيْن هما: ذِكرُ قولِ الدّابَّة، وذِكر سببِ تكليم الدّابَّة النّاسَ، وما في ذلك من إبراز لمعجزة الدّابة الّتي تظهر بأمر الله تعالى في آخر الزَّمان بينَ يدي السّاعَةِ.

بَلاغَةُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

عَــدَمُ الإيـقـانِ بِالآياتِ كَثيرٌ في النّاسِ

في قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وضعُ المظهر موضعَ المضْمَرِ[1]، وذلك لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يردَ في النَّظم القرآنيِّ: (أنَّهم كانوا بآياتنا لا يوقنونَ)، وفي هذا الإظهار إيماءٌ إلى أنَّ عدمَ الإيقان بالآيات ليس مخصوصًا بالمذكورين قبلُ، وهذا المعنى لا يُعطيه الإضمارُ، فكان في الإظهارِ تعميمٌ للدَّلالة.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُوا۟﴾:

عَراقَةُ أَهْلِ الكُفْرِ في الـتَّـكْـذيـبِ بِآياتِ اللهِ تَعالى

جاءَ التَّعبيرُ بفعل ﴿كَانُوا۟﴾، في قولِ الله تَعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، وفي ذلك دِلالَة على أنَّ عدمَ اليَقينِ بالآياتِ صارَ عريقًا في نُفوسِهم مُتَجَذِّرًا فيهم حتّى صار بمنزلَةِ الطَّبيعَة والجِبلَّة[2]، وعندما تصل الحالُ إلى هذا في آخِر الزمان، يُخْرِجُ اللّهُ تعالى للنّاس دابَّة تُكَلِّمهم بِما يَفْهَمونَه، وتُمَيِّز المسلمَ مِنَ الكافِر، وتُخْبِر عن أكثَرِ النّاس بأنَّهم كانوا لا يوقِنون بالآيات، فإيمانُهُم عارٍ عنِ الجَزْمِ واليَقين، وعارٍ عنِ الصِّدق والإخلاص.

نُكْتَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

ما يَـصْـدُرُ مِـنَ العَظيمِ عَظيمٌ

أُضيفت الآياتُ إلى الضَّمير (نا) في قولِ الله سُبْحانَه: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ للدِّلالةِ عَلى عَظَمَتِها؛ إذْ هيَ آياتُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 235.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 218.

العظيم ﷻ، وما يَصْدُر مِنَ العظيم عظيمٌ، وأيضًا للإيماء إلى اخْتِصاصِها بهِ سُبْحانه وأَثَرَتِها عندَهُ ﷻ[1].

وعلى كلا المعنيين يكون في الكلام زيادة تشنيع على الكافرين والمعرضين؛ إذ كيف يعرضون عن آيات عظيمة واضحة دالَّة أتمَّ الدلالة على صدق وعد الله تعالى.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُوقِنُونَ﴾:

عُـدولُـهُـمْ عَـنِ اليَقينِ مَعَ تَجَدُّدِ الآيـاتِ في غايَةِ الشَّناعَةِ

عبَّر النَّظْمُ القرآنيُّ عن عدَم يقين النّاس بالفِعْلِ المُضارِع ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾، فقال سُبْحانَه: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، وذلك يدلُّ على تجدُّد عدائِهم للآيات ومُعارَضَتِها كلَّما تجدَّد عليهم ذِكْرُها، فصار عدَمُ اليقينِ طبعًا لَهُم وسجيَّةً، فالفعلُ المُضارع المنفيُّ دالٌّ على الاستمرار بقرينَةِ ذَمِّهم وتوبيخِهم، والمقصودُ: استمرارُ عدمِ إيقانِهم لا عدَمُ استمرارِ الإيقانِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِلْم واليَقين:

العِـلْـمُ إدْراكٌ، واليَقينُ اطْمِئْنانٌ

بَيْنَ العلم واليَقين فُروقٌ، فالعلمُ: إدراك الشَّيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا[2]، وهو ضدُّ الجهل، بخلاف اليقين فإنَّهُ اطمئنانٌ إلى مَعْرِفة، وهو ضدُّ التَّردُّد، فصار اليقين لدرجات التحقُّق، وصار العلم لدرجات المعرفة.

ثمَّ إنَّ العلمَ يورِثُ اليَقين، ولكنْ ليسَ كلُّ يقينٍ يَنْتُجُ عَن العلم، فقد يتحقَّق اليقينُ بمعايشة وتجريبٍ، وقد يقع بِثِقَةٍ في صاحبِ العِلْمِ وتقليدٍ، وقد تجتمع جميعُ الأدِلَّة ولا تورِثُ اليقين، لمانعٍ مِن إعراض أو اتِّباع هَوًى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 301.

(2) ابن عثيمين، الأصول من علم الأصول، ص: 15.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»